

الإسلام.. بين الإرادة والإكراه



كَثُرَ الحديث عن مسألة العنف والإيمان، ويحاول البعض أن يصوّر الإسلام دين عنف وقتل وإرهاب.. والقرآن يؤكد أن دعوته، دعوة الفكر والحجة والبرهان العلمي، ودعوة الحوار والتفاهم والتعايش، وإنّ الجهاد بالمال والنفس، هو وسيلة من وسائل الدفاع، وليس أسلوباً لفرض الإسلام، فالدِّين عقيدة وسلوك، والعقيدة والسلوك لا يكونان بالقهر والقوّة.. ولبيان ذلك قال الله تعالى: (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (البقرة/ 256).

وقال مخاطباً النبيَّ محمدًا (ص): (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُهُ الذَّلَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) (يونس/ 99) .

ويتحدّث القرآن عن بيان النبيّ نوح (ع) لقومه إنّ حقائق الدّين غير قابلة للإكراه والإلزام والجبر، فهي عقيدة يقتنع بها العقل، وإيمان تقبله النفوس عن رضا وقناعة، جاء ذلك في قوله تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَاعْمُوا بِسِيَّتِهِ فَعَلَيْكُمْ أَزْلٌ لَّكُم مَّوْعِدٌ وَأَنْتُمْ كَارِهِونَ) (هود/ 28)

(وَمَا أَرْزَأْتِ عَلَيْهِمْ ° بَحِيرَ سَارٍ ° فَذَكَرَ ° بِالْقُرْآنِ ° مَنْ ° يَخَافُ ° وَعِيدِ) (ق/ 45) .

وقال سبحانه: (وَمَا جَعَلْنَاهُ إِلَّا عَظِيمًا وَمَا أَزَتْ عَلَيْهِمْ يَؤُوكِيلٌ)

وقال تعالى: (لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُطَهِّرٍ) (الغاشية / 22) .

ولكي يتّضح لنا المعنى المقصود في هذه الآيات النافية للإكراه في الدّين، والمؤكدّة أنّ مهمّة النبيّ (ص)، ودُعاة الإسلام هي الدعوة إلى الإسلام، والتعريف بمبادئه، وأنّ عليهم أن يحسنوا الخطاب، واعتماد أسلوب العقل والعلم والحوار، ليواجه الإنسان المخاطب مسؤوليته وواجبه.. وأنّ تشريع الجهاد والقتال، إنّما هو وسيلة دفاعية ووقائية، لكي يتّضح ذلك فلنقرأ ما كتبه المفسّر الكبير العلامة السيّد محمد حسين الطباطبائي في تفسير هذه الآيات، قال (رحمه الله) : "قوله تعالى: (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا حَفِيفًا إِنْ هُمْ حَفِيفُونَ) (الشورى/ 48). عدول من خطّابهم إلى خطاب النبيّ (ص) لإعلامه أنّ ما حمّله من الأمر إنّما هو التبليغ لا أزيد من ذلك، أُرسل مبلّغاً لدين الله، إنّ عليه إلاّ البلاغ، ولم يُرسل حفيظاً عليهم، مسؤولاً عن إيمانهم ووطاعتهم، حتى يمنعهم عن الإعراض، ويتعب نفسه لإقبالهم عليه".

"قوله تعالى: (زَحْنٌ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ رَبَّهُمْ فَلَا تَقْرَأُ مِّنْ يَّخَافُ وَعَيْدٍ) (ق/ 45)، في مقام التعليل لقوله: (فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ) (طه/ 130)، فنحن أعلم بما يقولون سنجزئهم بما عملوا، ولست أنت بمتسلط جبَّار عليهم، حتى تجبرهم على ما تدعوهم إليه من الإيمان بالله واليوم الآخر، وإذا كانت حالهم هذه الحال، فذكر ربهم بالقرآن مَن يخاف وعيد".

"قوله تعالى: (وَلَوْ شَاءَ اللَّاهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلَ ذَلِكَ عَلَیْهِمْ حَافِیْطًا وَمَا أَزْنَتْ عَلَیْهِمْ بِوَكَّیْلِ) (الأنعام/ 107).. تطیب لقلب النبی (ص) أن لا یجد لشركهم ولا یحزن لخیبة المسعی فی دعوتهم، فإنَّهم غیر معجزین فیما أشركوا، فإنَّما المشیئة □، لو شاء ما أشركوا، بل تلبَّسوا بالإیمان عن طوع ورغبة، كما تلبَّس من وفَّق للإیمان، وذلك أنَّهُم استكبروا فی الأرض، واستعلوا علی □، ومكروا به وقد أهلكوا بذلك أنفسهم، فردَّ □ مكرهم إلیهم، وحرّمهم التوفیق للإیمان والاهتداء، إذ كما أنَّ السَّئنة جاریة فی التکوین هی سنة الأسباب وقانون العلیة والمعلولیة العام، والمشیئة الإلهیة إنَّما تتعلّق بالأشیاء، وتقع علی الحوادث علی وفقها، فما تمت فیهِ العلل والشرائط، وارتفعت عن وجوده الموانع، كان هو الذي تتعلّق بتحقیقه المشیئة الإلهیة، وإن كان □ سبحانه له فیهِ المشیئة مطلقاً، إن لم یشأ لم یکن، وإن شاء كان، كذلك السَّئنة فی نظام التشریع والهدایة هی سنة الأسباب، فمن استرحم □ رحمته، ومَن أعرض عن رحمته حرّمه، والهدایة بمعنی إراءة الطریق تعمُّ الجميع، فمن تعرّض لهذه النفحة الإلهیة، ولم یقطع طریق وصولها إلیه بالفسق والکفر والعناد، شملته وأحیته بأطیب الحیاة، ومَن اتَّبَعَ هواه، وعاند الحقَّ، واستعلی علی □، وأخذ یمکر با□، ویستهزئ بآیاته حرّمه □ السعادة، وأنزل □ علیه الشقوة، وأضلَّه علی علم، وطبع علیه بالکفر فلا ینجو أبداً .

ولولا جريان المشيئة الإلهية على هذه السُّنة بطل نظام الأسباب، وقانون العلية والمعلولية، وحلّت الإرادة الجزافية محله، ولغت المصالح والحِكَم والغايات، وأدى فساد هذا النظام إلى فساد نظام التكوين، لأنّ التشريع ينتهي بالآخرة إلى التكوين بوجه، ودبيب الفساد إليه يؤدي إلى فساد أصله. وهذا كما أنّ سبْحانه لو اضطرَّ المشركين على الإيمان، وخرج بذلك النوع الإنساني عن مُنشعب طريقي الإيمان والكفر، وسقط الاختيار الموهوب له، ولازم بحسب الخلقة الإيمان، واستقر في أوّل وجوده على أريكة الكمال، وتساوى الجميع في القرب والكرامة كان لازم ذلك بطلان نظام الدعوة، ولغو التربية والتكميل، وارتفع الاختلاف بين الدرجات، وأدّى ذلك إلى بطلان اختلاف الاستعدادات والأحوال والمَلَكات، وانقلب بذلك النظام الإنساني، وما يحيط به ويعمل فيه من نظام الوجود إلى نظام آخر، لا خير فيه عن إنسان، أو ما يشعر به فافهم ذلك".

"قوله تعالى: (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرِّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) (البقرة/ 256). الإكراه هو الإجبار، والحمل على الفعل من غير رضى، ثم قال: وفي قوله تعالى: (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)، نفي الدِّينِ الإجباري، لما أن الدِّينَ، وهو سلسلة من المعارف العلمية التي تتبعها

أخرى عملية يجمعها أنزها اعتقادات، والاعتقاد والإيمان من الأمور القلبية التي لا يحكم فيها الإكراه والإجبار، فإنَّ الإكراه إنَّما يؤثِّر في الأعمال الظاهرية، والأفعال والحركات البدنية المادية، وأمَّا الاعتقاد القلبي فله علل وأسباب أخرى قلبية من سنخ الاعتقاد والإدراك، ومن المُحال أن ينتج الجهل علماً، أو تولد المقدمات غير العلمية تصديقاً علمياً، فقلوه: (لا إكراهَ في الدين)، إن كان قضية إخبارية حاكية عن حال التكوين، أنتج حُكماً دينياً بنفي الإكراه على الدين والاعتقاد، وإن كان حُكماً إنشائياً تشريعياً، كما يشهد به ما عقبه تعالى من قوله: (قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)، كان نهياً عن الحمل على الاعتقاد والإيمان كرهاً، وهو نهى مُتَّكِيه على حقيقة تكوينية، وهي التي مرَّ بيانها أنَّ الإكراه إنَّما يعمل ويؤثِّر في مرحلة الأفعال البدنية دون الاعتقادات القلبية .

وقد بيَّن تعالى هذا الحُكم بقوله: (قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)، وهو في مقام التعليل فإنَّ الإكراه والإجبار إنَّما يركن إليه الأمر الحكيم والمربي العاقل في الأمور المهمَّة التي لا سبيل إلى بيان وجه الحقَّ فيها لبساطة فهم المأمور ورداءة ذهن المحكوم، أو لأسباب وجهات أخرى، فيتسبب الحاكم في حكمه بالإكراه أو الأمر بالتقليد ونحوه، وأمَّا الأمور المهمَّة التي تبيِّن وجه الخير والشرِّ فيها، وقرَّر وجه الجزاء الذي يلحق فعلها وتركها، فلا حاجة فيها إلى الإكراه، بل للإنسان أن يختار لنفسه ما شاء من طرفي الفعل، وعاقبتَي الثواب والعقاب، والدين لما انكشفت حقائقه، واتَّضح طريقه بالبيانات الإلهية الموضحة بالسُّنة النبويَّة، فقد تبيَّن أنَّ الدين رشد، والرُّشد في اتباعه، والغى في تركه والرغبة عنه، وعلى هذا لا موجب لأن يُكره أحد أحداً على الدين .

وهذه إحدى الآيات الدالة على أنَّ الإسلام لم يبتنِ على السيف والدم، ولم يفت بالإكراه والعنوة على خلاف ما زعمه عدة من الباحثين من المنتحلين وغيرهم أنَّ الإسلام دين السيف واستدلوا عليه: بالجهاد الذي هو أحد أركان هذا الدين. وقد تقدَّم الجواب عنه في ضمن البحث عن آيات القتال، وذكرنا هناك أنَّ القتال الذي ندب إليه الإسلام ليس لغاية إحراز التقدُّم، وبسط الدين بالقوَّة والإكراه، بل لإحياء الحقِّ، والدفاع عن أنفس متاع للفطرة وهو التوحيد، وأمَّا بعد انبساط التوحيد بين الناس وخضوعهم لدين النبوة ولو بالتهوُّد والتنصُّر، فلا نزاع لمسلم مع موجد ولا جدال، فالإشكال ناشئ عن عدم التدبُّر، ويظهر مما تقدَّم أنَّ الآية - أعني قوله: (لا إكراهَ في الدين) - غير منسوخة بآية السيف كما ذكره بعضهم".

"وقوله: (أَزِلُّوهُم مِّنْ دِينِهِمْ وَأَنزِلُوهُمْ فِي الْكُفْرِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (هود/ 28)، الإلزام جعل الشيء مع الشيء بحيث لا يفارقه ولا ينفك منه، والمراد بالإلزامهم الرحمة وهم لها كارهون، إجبارهم على الإيمان بالله وآياته، والتلبس بما تستدعيه المعارف الإلهية من النور والبصيرة. ومعنى الآية - وأعلم - أخبروني إن كانت عندي آية معجزة تصدِّق رسالتي مع كوني بشراً مثلكم، وكان عندي ما تحتاج إليه الرسالة من كتاب وعلم يهديكم الحقَّ، لكن لم يلبث دون أن أخفاه عليكم عنادكم واستكباركم، أوجب علينا عندئذ أن نجبركم عليها؟ أي عندي جميع ما يحتاج إليه رسول من الله في رسالته، وقد أوقفتمكم عليه لكنكم لا تؤمنون به، طغياناً واستكباراً، وليس عليَّ أن أجبركم عليها، إذ لا إجبار في دين الله سبحانه .

ففي الكلام تعريض لهم أنَّهُ قد تمت عليهم الحجة، وبانت لهم الحقيقة فلم يؤمنوا، لكنهم مع ذلك يريدون أمراً يؤمنون لأجله، وليس إلاَّ الإلزام والإكراه على كراهية، فهم في قولهم: (مَّا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا) (هود/ 27). لا يريدون إلاَّ الإلزام، ولا إجبار في دين الله. والآية، من جملة الآيات النافية للإكراه في الدين، تدلُّ على أنَّ ذلك من الأحكام الدينية المشرعة في أقدم الشرائع، وهي شريعة نوح (ع) وهو باقٍ على اعتباره حتى اليوم من غير نسخ".

"(أَفَأَنزَلْنَاكَ تَكْرَهُهُ النَّاسَ حَتَّى يَكَفُّوا مَؤْمِنِينَ) (يونس/ 99) أي بعدما بيَّنا أنَّ أمر المشيئة إلى الله، وهو لم يشأ إيمان جميع الناس فلا يؤمنون باختيارهم البتة، لم يبقَ لك إلاَّ أن تكره الناس وتجرهم على الإيمان، وأنا أنكر ذلك عليك، فلا أنت تقدر على ذلك، ولا أنا أقبل الإيمان الذي هذا نعته".

وقال تعالى مخاطباً نبيّه الكريم (ص) ليوضح له مهمّته كنبىّ مبلغ ويحدّد له موقفه ممن يرفض دعوة الحقّ والهدى والصالح :

(فَذَكَرُوكُمْ إِن نَّسَمَّا أَزْنَتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ * إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ) (الغاشية / 21-24).

قال المفسّر الإمامي الكبير: "معناه لست عليهم بمتسلط تسليطاً يمكنك أن تدخل الإيمان في قلوبهم، وتجبرهم عليه، وإنّما الواجب عليك الإنذار، فاصبر على الإنذار والتبليغ، والدعوة إلى الحقّ.. وقيل معناه، لست عليهم بمتسلط الآن حتى تقاتلهم إن خالفوك، وكان هذا قبل آية الجهاد ثمّ نسخ بالأمر بالقتال.. والوجه الصحيح أنّّه لا نسخ فيه، لأنّ الجهاد ليس بإكراه للقلوب، والمراد إنّك إنّما بعثت للتذكير وليس عليك من ترك قبولهم شيء.. إلّا مَن تولى وكفر، أي أعرض عن الذكر، ولم يقبل منك، وكفر بالحقّ، وبما جئت به فكلّ أمره إلى الله، عن الحسن، وقيل معناه إلّا مَن تولى وكفر فليست له بمذكّر، لأنّه لا يقبل منك فإنّك لست تذكره (فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ) وهو الخلود في النار..".

وبعد هذا العرض للآيات القرآنية المتحدّثة عن الإيمان ورفض الإكراه ووجوب أن يكون الإيمان عن قبول وقناعة عقلية وقلبية يتّضح أنّ القرآن لا يريد إيصال دعوته بالقهر والإكراه، بل بالوعي والفهم والتفكير.. قال تعالى: (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفْرِضُ مِنَ الدِّمَاحِ عَرَافُوًا مِنَ الْحَقِّ يَفْقَهُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) (المائدة / 83).

(وَأَنْزَلْنَاهَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (النحل / 44)، (هُوَ السَّيِّدُ أُنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْزِلُ لَكُمْ بِهِ الزَّרْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّلَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمُومُ مَسْخَرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (النحل / 10-12).